الفصل الثالث

نقد المعاني الفاسدة من الشعر المروي

إن رواية الشعر ذي المعاني الفاسدة ذات المساس بما يخدش الحياء من فحش وقبح، أو ما يمسّ العقيدة بالإنكار لأحكامها أو تشريعاتها مما هو كفر أو إلحاد؛ لا يخلو من إباحة إذا كان مقصود روايته الاستشهاد والاستدلال؛ لأن الراوية لا يزيد عن كونه مردداً لألفاظ الشعر، إذا كان غير قابل لما جاء فيها، ولا بد له من موقف إيجابي ينبه فيه على مواضع الفساد، لئلا يكون مروِّجاً له، مغرياً به، أو محرضاً عليه.

ولعل أقدم المواقف الإيجابية من رواية الشعر وتناشده، والتي تمثل التوازن بين القيم الجمالية والقيم الخلقية، ما روي عن ابن أبي عتيق [عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق] من رأي ونقد في شعر عمر بن أبي ربيعة، وقد ذكر شعره وشعر الحارث بن خالد بن العاص بن هشام المخزومي، ففضل رجل من ولد خالد بن العاص شعر الحارث بن خالد، فقال ابن أبي عتيق: «بعض قولك يا بن أخي، فلشعر عمر لوطة في القلب، وعَلَق بالنفس، ودرك للحاجة، ما ليس لشعر غيره، وما عصى الله عز وجل بشعر أكثر مما عصى بشعر عمر، وخذ عني ما أصف لك: أشعر قريش من دق معناه ولطف مدخله، وسهل مخرجه، ومتن حشوه وتعطفت حواشيه، وأنارت معانيه، وأعرب عن صاحبه»[1].

حدد ابن أبي عتيق في نقده خصائص عامة مميزة لعمر بن أبي ربيعة، فعقد له

---

(١) المرزباني: الموشح ص ٣٢٨.

سبقاً على الشعراء في فاعلية شعره، وتأثيره على النفس بهشاشتها له، وامتلاكه للقلب بارتياحه له، وسلّم له الشاعرية على قريش خاصة بمميزات بذ فيها شعراءها؛ بدقة المعاني ووضوحها، واستيعابها لحاجات النفس ورغائبها، وسهولة التعبير، وقوة التركيب، وحسن الديباجة.

وإحساس ابن أبي عتيق بجمال شعر عمر بن أبي ربيعة مضموناً وصورة تعبيرية، إحساس طاغ في نقده المعجب به، غير أنه عرف كيف يحدّ من طغيانه بقواعد فنية وعلل موضوعية.

ولم يكن هذا الإحساس بالجمال صارفاً ابن أبي عتيق عن الالتزام بالخطة الإسلامية في الإحسان رواية ونقداً، بالتنبيه على مواضع الخلل الخلقي، وتوضيح جوانب القبح والفساد؛ بأن شعر عمر بن أبي ربيعة شعر معصية لله، وخروج عن أوامره، واستهانة بنواهيه لم يجدها عند غيره.

والذين يهونون من شأن هذا الموقف الواضح في الدلالة على القبح بتواز مع الدلالة على الجمال يرون فيه ملاحظة عابرة غير جديرة بالانتقاص من شعر عمر بن أبي ربيعة، وقد فاتهم الالتفات إلى دلالات عدة في مقولة ابن أبي عتيق: «وما عصى الله عز وجل بشعر أكثر مما عصى بشعر عمر»:

أولاً: ارتباط هذا الشعر بالمعصية وهي قبح محض بالخروج على أوامر الله، والاستهانة بنواهيه، والخوض بالباطل بحكاية أحوال النساء، وابتهارهن كذباً أو ابتيارهن صدقاً[1]، وكل ذلك حرام لا يحل الخوض فيه.

ثانياً: لم تكن معصية عمر بن أبي ربيعة في شعره من قبيل البادرة أو النادرة، بل تنتظم شعره، فهي ظاهرة عامة.

---

(١) الابتهار: أن يقول ما لا يفعل، والابتيار: أن يفعل الإنسان الشيء فيذكره ويفخر به، وفي حديث العوام: «الابتهار بالذنب أعظم من ركوبه» (انظر الأغاني ١/١١٨).

ثالثاً: توازي الجمال والقبح في شاعريته، إذ المفاضلة قائمة على التوازي بين سبق عمر لغيره من الشعراء في تأثير شعره، وارتكاسه أكثر من غيره أيضاً في المعصية والقبح (وما عصى الله أكثر مما عصى بشعر عمر).

حقاً أن ابن أبي عتيق لم يطلق حكماً بتأخر عمر في منزلته تبعاً لهذا الهبوط، وقياساً بهذا الباطل في شعره، لكنه يبرأ لنفسه من أن يغضي عيناً على قذى، أو يرفع من شاعرية دون تنبيه على ما يشوبها، أو يثني على جمال يشوهه قبح، وتلك إيجابية وإحسان.

أما الذين يترصدون الإسلام ويعدونه قيداً ثقيلاً على أنفسهم قبل أن يتلمّسوه عند غيرهم، فقد فهموا هذه المقولة فهماً عجيباً خطيراً، إذ عدوا عصيان الله في الشعر فضيلة متناسبةً مع الجمال الفني وجوداً وعدماً، وقلة وكثرة، فكلما كثر ذلك في الشعر كان أوفر حظاً من الجمال الفني، يقول قائلهم «وهذا شيء جديد حقاً، فقد أصبح من الفضائل التي يفضل بها شعر شعراً في اعتبار النقد الأدبي في هذا العصر، أن يتضمن الدعوة إلى عصيان الله، أو الإغراء به، وكلما كان أكثر من هذا حظاً كان أوفر من الجمال الفني نصيباً، وهكذا صار الفسوق عن أوامر الدين وتعاليم الإسلام مقياساً جديداً من مقاييس الفن، لا يتحرج ابن أبي عتيق عن المجاهرة به في ذلك المجلس من المجالس الأدبية، وما أبرزه تحولاً يساير التحول الذي أصابته الجدة السياسية والأدبية»[1].

إن المنابر الثقافية العالية التي تولت توجيه تراثنا الفكري والأدبي والتاريخي ساءها أن تجد ناقداً موضوعياً يتصل بالنبوّة بصحبة جده أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فعمدت إلى تشويهه بتلويث رأيه، ليكون شاهداً على التحول الذي يريدونه عن

(١) طه الحاجري: تاريخ النقد والمذاهب الأدبية في العصر الجاهلي والقرن الأول الهجري - ط دار النهضة العربية - بيروت ١٩٨٢م. ص ٧٨-٧٩. وانظر د. عبد العزيز عتيق الذي سلخ النص والرأي من غير إشارة في تاريخ النقد الأدبي عند العرب ص ١٢٠-١٢١.

الإسلام، ودليلاً على الردة التي يطمعون بها.

فالمعنى في سياق جملة ابن أبي عتيق النقدية لا يتوجه الوجهة التي ذهب إليها هذا الفريق من الفهم والرأي؛ لأن جملة «وما عصى الله بشعر أكثر مما عصى بشعر عمر» إن لم تكن حالية فهي استئنافية، ولا مدخل فيها للمعية أو التبعية السببية.

وعلى ذلك فالسياق تقرير بموضوعية عن مذهب عمر المتفرد، وتأثيره الذي لا يبارى في النفوس والقلوب، والحال أنه شعر معصية أو وعصيان الله محصور في كثرته بشعره.

والناظر فيما انتخبه ابن أبي عتيق من شعر عمر يوضح مقياسه النقدي وتوجهه الفكري، الذي يدفع هذه الأوهام التي أقحمت عليه زوراً، فعندما تخير الخالدي من شعر الحارث بن خالد المخزومي قوله:

إنـي ومـا نحـروا غداة منـى ... عنـد الجمـار تئودهـا العقـول

انتخب ابن أبي عتيق قول عمر:

سائـلا الـربـع بالبُلَيِّ وقـولا ... هجت شوقـاً لي الغـداة طويلا
أين حَيٌّ حَلّوك إذا أنت محفـو ... فٌ بهـم آهِـلٌ أراك جمـيلا
قال: ساروا فأمـعـنـوا واستقلّوا ... وبكُـرهي لو استـطعتُ سبيلا
سئمـونـا ومـا سئمنـا مقـامـا ... واستـحبّـوا دمـاثـة وسهـولا

وهـذا الشعر لا مدخل فيه للمعصية، وارتباطه بالعشق والغزل وإظهار الصبابة وحسن الخطاب أوضح وأوكد، إذ يقول ابن أبي عتيق مقدماً للنص ودافعاً لتفضيل الخالدي: «ابن أبي ربيعة كان أحسن صحبة من صاحبك، وأجمل مخاطبة»[1].

وعلى الرغم من حرص أبي الفرج على أخبار ابن أبي عتيق مع عمر بن أبي ربيعة

---

(١) المرزباني: الموشح ص ٣٢٨ وأبو الفرج الأصفهاني: «الأغاني ١/١٠٩.

إلاّ أنه أضرب صفحاً عن مقولته النقدية هذه، لأن فيها ما يضاد اتجاهه في الاحتفال بشعر عمر، وهو ذكر ابن أبي عتيق معصية الله في شعره، ولذلك مال أبو الفرج إلى مقولة مصعب بن عبد الله الزبيري في نقد شعر عمر وتقريظه، ففرد كل خصيصة بما يناسبها من شعر عمر، وهي التي يقول فيها: «راق عمر بن أبي ربيعة وفاق نظراءه، وبرعهم بسهولة الشعر، وشدة الأسر، وحسن الوصف، ودقة المعنى، وصواب المصدر، والقصد للحاجة، واستنطاق الربع، وانطاق القلب، وحسن العزاء، ومخاطبة النساء، وعفة المقال. . .»[1].

وكان أجدر بأبي الفرج أن يأخذ بمقولة ابن أبي عتيق النقدية لدقتها، وإيجازها، وإصابتها، وشهرة صاحبها النقدية، لولا أن الإشارة إلى المعصية مما يهون من شأن الاحتفال بشعر عمر.

على أن فيما رواه أبو الفرج من أخبار ابن أبي عتيق مع ابن أبي ربيعة ما يدين مضمون شعر عمر إدانة كاملة من الناحية الخلقية فيؤكد اتجاه ابن أبي عتيق المتوازن في الدلالة على الجمال والقبح بقدر متساو، إذ أخذ عليه الكذب في بعض المواقف[2]؛ ولعل في ذلك ما يؤكد المعادلة المتوازنة التي سبقت الإشارة إليها في هذه المقولة أن نظرة ابن أبي عتيق إلى شعر عمر هي إعجاب بجمال التعبير متناً ومدخلاً، وحاشية ومخرجاً ووضوحاً في المعنى ودقة من غير إغفال لدورانها على القبح في معصية الله.

ولما صار النقد الأدبي عند العرب إلى تقعيد الأسس التي تكون بها الجودة، ويتم بسببها التفضيل. كان التنبيه على الشعر الفاحش تأصيلياً تاريخياً أو خلقياً، وإن لم يرتب عليه تأخير منزلة الشاعر أو رتبته في زمنه بين نظرائه، لكن هذا التنبيه باتجاهية التأصيلي والخلقي يمثل موقفاً إيجابياً من الشعر الفاحش في روايته.

---

(١) انظر أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ١/ ١٢٠ وما بعدها.

(٢) المصدر نفسه ١/ ١٥٢.

ففي تأريخ محمد بن سلام الجحمي (ت ٢٣١هـ) وتوثيقه لاتجاهات الشعر الخلقي في الجاهلية والإسلام قال: «فكان من الشعراء من يتأله في جاهليته ويتعفف في شعره، ولا يستبهر بالفواحش، ولا يتهكم في الهجاء، ومنهم من كان ينعى على نفسه ويتعهر. منهم امرؤ القيس قال:

ومثلك حبلى قد طرقت ومرضعٍ فألهيتها عن ذي تمائم محول

. . . ومنهم الأعشى قال:

فظللت أرعاها وظل يحوطها حتى دنوت إذ الظلام دنا لها

. . . وكان الفرزدق أقول أهل الإسلام في هذا الفن قال:

هل دلتاني من ثمانين قامةً كما انقض باز أقتم الريش كاسره

. . . الأبيات

. . . كان جرير مع إفراطه في الهجاء يعف عن ذكر النساء، كان لا يشبب إلا بامرأة يملكها»[1].

وعاب ابن قتيبة امرأ القيس «تصريحه بالزنا والدبيب إلى حرم الناس، والشعراء تتوقى ذلك في الشعر وإن فعلته»[2] وذلك في تمهيده لرواية قصيدته:

سموت إليها بعدما نام أهلها سموّ حباب الماء حالاً على حال

. . . الأبيات

وأوضح من هذا الموقف وأعنف في الدلالة على القبح والأخذ بالإحسان في رواية الشعر ما عقب به الباقلاني ناقداً أبيات امرىء القيس:

فقلت لها سيري وأرخي زمامه ولا تبعديني من خباك المعلل

---

(١) انظر ابن سلام: طبقات فحول الشعراء ١/ ٤١-٤٦.

(٢) ابن قتيبة: الشعر والشعراء ١/ ١٣٥-١٣٦.

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضعٍ فألهيتها عن ذي تمائم محول

. . . الأبيات

قال: «وفيه (البيت الثاني) من الفحش والتفحش ما يستنكف الكريم عن مثله، ويأنف من ذكره».

وفي قول امرىء القيس «إذ ما بكى من خلفها انصرفت له. . . البيت» قال الباقلاني: «فالبيت الأول غاية في الفحش، ونهاية في السخف، وأي فائدة لذكره عشيقته كيف كان يركب هذه القبائح، ويذهب هذه المذاهب، ويرد هذه الموارد، إن هذا ليبغّضه إلى كل من سمع كلامه، ويوجب له المقت! وهو ـ لو صدق ـ لكان قبيحاً، فكيف ويجوز أن يكون كاذباً؟!»[1].

وهذا الشعر وأمثاله مما جرى عليه الشعراء المحدثون احتذاءً وتقليداً قبح خارج عن الجمال، لأنه يصدم النفوس بفحشه، يقول الباقلاني: «وأنت تجد في شعر المحدثين من هذا الجنس في التغزل ما يذوب معه اللب، وتطرب عليه النفس، وهذا مما تستنكره النفس، ويشمئز منه القلب، وليس فيه شيء من الإحسان والحسن»[2].

وثمة وجه آخر لشعر المحدثين كثر فيه انحرافهم وهو الخروج على عقيدة الإسلام زندقة وإلحاداً وكفراً، فاقتضى ذلك نقداً عنيفاً عند روايته، فمن الشعراء الذين عرفوا بذلك أبو نواس الذي اتهم في قوله[3]:

تنازع الأحمدان الشِّبْهَ فاشْتَبَها خَلْقاً وخُلْقاً كما قُدَّ الشِّراكانِ
اثنان لا فَصْلَ للمعقولِ بَيْنَهما معناهُما واحدٌ والعِدَّةُ اثنانِ

(١) الباقلاني: إعجاز القرآن ١٦٧.

(٢) المصدر نفسه ١٦٨.

(٣) قال ابن قتيبة مقدماً لهذه الأبيات والتي تليها: «ومما كفر فيه أو قارب» (انظر الشعر والشعراء ٨٠٧/٢).

«لأنه قال قولاً عظيماً لا يتكلم بمثله مسلم» في التسوية بين أحد من البشر ومحمد صلى الله عليه وسلم في الخَلْق والخُلق.

ومما أُنكر من قوله قوله:

يا أحمـدُ المُـرْتَجى في كُلِّ نائبـةٍ قُمْ سَيِّدي نَعْصِ جَبَّارَ السّماوات

قال المبـرد: «لأن هذه أعـظم جرأة، وأقبح مجاهرة، وأشد تبغض إلى العزيز الجبّار عز وجل أن يقول «نَعْصِ جبار السماوات» فذكر المعصية مع ذكر الجبار (عز اسمه)؛ وأنه إياه يقصد بالعصيان.

قال: وحدثت عن أحمد بن أبي داود أنه ذكر هذا البيت فتفزع له، وجعل يقول: «لعنه الله! وأحسن ابن أبي داود في لعنه إيّاه على هذا الكلام»[1].

ويعدّ مهلهل بن يموت بن المُزَرِّع (ت ٣٠٤هـ) البيت السابق مما كفر فيه أبو نواس، ويفـرد لكفـرياتـه في كتابه سرقات أبي نواس حيّزاً ينبه عليها فيقول: «فأما الكفريات التي لا أدري لماذا قالها، ولا يعتقدها، قوله:

قلت والكأس على كفي تهوى لالتثامي أنـا أعـرف ذاك اليوم في ذاك الـزحـام

وقوله:

خلّيانـي والمعـاصـي وذرا ذكــر القصـاص

وقوله:

تمتــع بالخمــور وبــاللواط ولا تخشى المرور على الصراط

وقوله:

---

(١) المرزباني: الموشح ص ٢٤٤ ط السلفية.

يا عاذلي في الـدين ذا هَجْرُ لا قدر صح ولا جبـر

وقوله:

عاذلـتي بالسفـاه والـزجـر اسـمعي ما أبث من أمـري
باح لسـاني بمضمـر السّـر وذاك أنـي أقـول بالـدهـر

وذيّل ذلك مهلهل بن يموت بن المُزَرِّع بالدهشة والاستغراب لبوح أبي نواس بهذا الكفر، فيقول: «وله في غير هذه الأبيات التي لا أعرف له في البوح بها عذراً مع ما كان عليه من اعتقاد شريعة الإسلام بشرائطها، لا يشك في ذلك أحد، لما كان يرى عليه من مجانبة من كان يجادل في الدين أو يستوحش»[1].

ولا يعني احتجاج مهلهل بن يموت باعتقاد أبي نواس شريعة الإسلام دفعه للقبح في هذا اللون من شعره، بل إن العنوان لها بـ «الكفريات» وسياقها بعد السرقات والرداءة والغثاثة في شعره لدليل على موقف رافض للقبح وشناعته.

وبالإتجاه ذاته في رفض القبح روى أبو عبيد البكري قول أبي نواس:

باح لسـاني بمضمـر السـرّ غير أنـي أقـول بالـدهـر
وليس بعـد الممـات منقلب وإنمـا المـوت بيضـة العقـر

ثم قال: «وهذا شعر دهري زنديق»[2].

وللإلحاح على إظهار مساوىء أبي نواس وقبح معانيه في المرويات الشعرية وجه آخر من إيجابية الموقف الناقد للقبح، إذ فيه احتراس من تداخل القبح والجمال تداخلاً يزين لجمال الفن، وجاذبية الأداء طغياناً يفتن المتلقي عن التوقف عند قبح المضامين وفساد معانيها، يقول المبرد: «وإنما ذكرنا مساوئه؛ لأن المنشد إذا ذكر شاعراً فوصفه ومدحه وقرظه، فليس يكاد يعدم مدافعاً عن قوله ومعارضاً له فيما يأتيه

(١) مهلهل بن يموت بن المزرع: سرقات أبي نواس ص ١٤٦.
(٢) أبو عبيد البكري: اللآلي في شرح أمالي القالي جـ١/٥٢٣.

بهذا ويشبهه احتجاجاً عليه، ووضعاً من صاحبه فيكسفه بما لا يعرف، ويردعه من حيث لا يشعر، فإذا وقف على الإحسان والإساءة عرف قدر صاحبه، فاحترس مما يخاف أن يعارض به»[1].

ويغالب قبح شعر أبي نواس محاسنه فيغلبها عند محمد بن زياد الأعرابي إذ لم يستطع شعره في الزهد والتوبة أن يعفي على صدى شعره الفاسد، لأن الشاعر المحسن في رؤيته النقدية إنما يحكم عليه بمجموع شعره، وليس بأفراد أبيات متناثرة، وفي المروية التالية ما يدلل على ذلك:

«قال محمد بن صالح: لما دخلت العراق وصرت إلى مدينة السلام، سألت عمن بها من الشعراء المحسنين، وذلك في خلافة الأمين، أو عند قتله، فقيل لي: قد غلب عليهم فتى من أهل البصرة يُعرف بأبي نواس، وقد كنت سمعت بشيء من شعره، أتاني به فتى كان يألفني من أهل الأدب، فقلت: هل تروي لأبي نواسكم هذا شيئاً؟ قال: نعم، أروي له أبياتاً في الزهد، وليس هو من طريقته، أنشدنيها آنفاً؛ قلت وما هي قال:

أخي ما بال قلبك ليس ينقى

قلت أحسن والله، فقال: أو لا أنشدك أحسن من هذا؟ قلت: بلى، فأنشدني:

ساءك الدهر بشيء ولما سرّك أكثر
يا كبير الذنب عفو الله من ذنبك أكبر

قلت: وقد والله أحسن وأجاد، وما ظننته إذ سلك غير طريقه يحسن هذا الإحسان فيه، قال: أفما سمعت مرثيته للأمين؟ قلت لا، فأنشدني:

طوى الموت ما بيني وبين محمد وليس لما تطوي المنية ناشر

---

(١) المرزباني: الموشح ٤١٦.

فقلت: بحقٍّ ما غلب هذا على أهل الأدب وقدموه على غيره من الشعراء.

قال أبو الوليد يحيى بن صالح بن بهيس: فحدثت هذا الحديث أبا عبد الله محمد بن زياد الأعرابي فقال: لو كان أخوك تصفّح جملة شعره لعلم أن فيه من الإساءة ما يعفي على المحاسن، وأي الناس إذا تخيرت كلامه لم تجد له البيت والبيتين»[1].

وأظهر مما سبق في إيجابية النقد المتعقب لشعر أبي نواس نزع الإحسان عنه وإنكار تقدم رتبته على معاصريه من الشعراء بسبب تجاوزه العقدي، ومعانيه الباطلة في إسناد صفات الخالق للمخلوق، يتبدى ذلك في حوار مسلم بن الوليد وأبي عبد الرحمن الضرير عبد الله بن يوسف السمرقندي، وكان راوية ثقة، قال: «رأيت مسلم بن الوليد بجرجان وهو يتولاها مقدمي من مدينة السلام، فسألني عمن خلفت من الشعراء، فقلت خلفت بها كوفياً وبصرياً قد غلبا على الشعراء، أما من الكوفيين فأبو العتاهية، وهو مقدم عندهم... وأما من البصريين فالحسن بن هانىء، فإنه يتقدم عندهم جميع نظرائه في فنون الشعر، فقال: ويحك! وكيف يكون كذلك، وهو يحيل في كثير مما يقول، ويتخطى صفة المخلوق إلى الخالق عز وجل! قلت مثل ماذا؟ قال: أما ما أحال فيه فقوله:

وأخفتَ أهل الشِّرْك حتى إنه ... لتخافُكَ النُّطَفُ التي لم تُخْلَقِ

فهذا مستحيل، وقوله:

اسقنيها سلافة ... سَبَقَتْ خَلْقَ آدما
فهي كانت إذ لم يكن ... ما خلا الأرض والسما

وأما ما تخطاه من وصف المخلوق إلى صفة الخالق عز وجل فقوله:

يجلُّ أن تلحقَ الصفاتُ به ... فكلُّ خَلْقٍ لخلقه مِثْلُ

(١) المرزباني: الموشح ص ٤٢٤-٤٢٥.

فهذا من الإغراق المستحيل في العقول، ومما ليس على مذهب العرب، ومما لا يستحسنه إلا جاهل قوله:

بريء من الأشباه ليس له مِثْلُ»[1].

* * *

وكان المدح مطية الشعراء في تجاوز صفة المخلوق إلى صفة الخالق غلواً وقلة ورع، فممن سلك هذا السبيل علي بن جبلة (العكوك) في مدحه أبي دلف، قال ابن قتيبة وهو يروي هذه الأبيات: «ومما أسرف فيه فكفر أو قارب الكفر قوله في أبي دلف:

أنت الذي تنزل الأيام منزلها ... وتنقلُ الدهر من حالٍ إلى حالِ
وما مددتَ مدى طرفٍ إلى أحدٍ ... إلا قضيت بأرزاقٍ وآجالِ
تَزْوَرُّ سُخْطاً فتمسي البيض راضيةً ... وتَسْتَهِلُّ فتبكي أوجهُ المالِ[2]

وحمل شعر المتنبي مدحاً وفخراً، خاصة في مرحلة الصبا، تجاوزات عقدية تمنى رواة شعره وشراحه لو لم يقلها، ولذلك أحسنوا حين نصوا عليها، إبانة عن خروجها، وتبرئة لأنفسهم من تبعتها، من ذلك قول المتنبي:

وأبهر آيات التِّهامي أنه ... أبوك وأجدى ما لكم من مناقب

قال أبو الفتح بن جني: «قد أكثر الناس القول في هذا البيت، وهو في الجملة شنيع الظاهر فأضربت عن ذكره، وقد كان يتعسف في الاحتجاج له، والاعتذار بما لست أراه مقنعاً، ومع هذا فليست الاعتقادات والآراء في الدين مما يقدح في جودة الشعر ورداءته»[3].

---

(١) المرزباني: الموشح ٤٣٧-٤٣٨.

(٢) ابن قتيبة: الشعر والشعراء ج٢/٨٦٦.

(٣) العكبري: التبيان ١/١٥٤ *. وقد دافع أبو الفضل العروضي عن معنى هذا البيت بقوله: «لو قلت إنه أمدح بيت في الشعر لم أبعد عن الصواب...» انظر التبيان ١/١٥٥. =

وفي قول المتنبي:

إن كان مثـلك كان أو هو كائـن فبـرئـت حينئـذٍ من الإسـلام

قال الواحدي: «هذا من المدح البارد الذي يدل على رقة دين وسخافة عقل، وهو من شعر الضبي»[1].

وفي قوله أيضاً:

يا أيهـا الـملك الـمُصـفَى جوهـراً من ذات ذي الملكوت أسمى من سما

قال الـواحـدي: «وهذا مدح يوجب الوهم، وألفاظ مستكرهة في مدح البشر، وذلـك أنـه أراد أن يستكشف الممدوح عن مذهبه، فإن رضي بهذا علم أن مذهبه رديء، وإن أنكر علم أنه حسن الاعتقاد»[2].

وإذا كان الـواحـدي قد حاول الاعتذار عن المتنبي بهذا الاستكشاف لمعتقد الممدوح بإثارة رضاه أو سخطه والذي لا يستقيم دليلاً في دفع مساسه بالدين؛ لأن هذه الأبيات في مدح أبي الفضـل الشخصيّة الغامضة التي تركت آثاراً بعيدة على المتنبي في صباه، من تلقينه له مبادىء الباطنية واتجاهاتها، بالقدر الذي أثر عليه أيضاً أبو علي بن هارون بن عبد العزيز الأوراجي الذي كان يذهب إلى التصوف، ومدحه المتنبي بالصورة ذاتها في قوله:

لو لـم تكن من ذا الـورى اللُّذْ منك هو عَقِـمَـتْ بمـولـد نَسْـلِهـا حواءُ[3]

= * نستطيع أن نعزز بمقولة ابن جني «فليست الاعتقادات والآراء في الدين مما يقدح في جودة الشعر ورداءته» تفسير مقولة القاضي الجرجاني «والدين بمعزل عن الشعر» التي تعني «أن الحكم على براعة الشاعر وموهبته يتجرد عن كل القيم غير الفنيّة، ولا يؤخذ في الاعتبار ملته ومذهبه» (انظر د. عبد الباسط بدر: مقدمة لنظرية الأدب الإسلامي ص١٤٠).

(١) الواحدي: شرح ديوان المتنبي ٥٩٣.

(٢) المصدر نفسه ص ١٩.

(٣) العكبري: التبيان ١/٣١.

غير أن ابن وكيع التنيسي يرى في هذه الأبيات قلة ورع ويباعد بين هذا التناول الشعري وطريق الشعراء في المبالغة فيقول: «هذا مدح متجاوز، وفيه قلة ورع، وترك للتحفظ؛ لأنه جعله من ذات الباري، وذكر أنه قد حلّ فيه نور لاهوتي، ثم قال بعد هذا كله «فتكاد تعلم»[1] فأتى بلفظ المقاربة، ولم يطلق عليه علم الغيب، وقد رأينا من الشعراء من لم يعط من مدحه هذه الصفات، ولم يطلق على الممدوحين أنهم بالحس اللطيف يدركون ذلك كقول أبي علي البصير:

وكيف يجوز أن على أديبٍ لطيف الحس تُطلعُ الغيوبا

ومثله قول ابن الرومي:

جمال وإفضال وظرف ونجدة ورأي يريه الغيب لا رجمُ راجم

فهذا مذهبهم في المبالغة، على أنهم لم يعطوا الممدوحين الدرجة التي أعطاها أبو الطيب هذا الممدوح، فكيف له بأن يمنعه ما قد دفعه غيره، إن كان تورع فورعه عمّا قال فيه أولى به»[2].

ومما أفرط فيه أبو الطيب فجاوز في مدحه الحد الإنساني حين رفع منزلة بدر بن عمّار إلى درجة أن معرفته بالحلال والحرام مغنية عن إرسال الرسل والكتب:

لو كان علمك بالإله مقسماً في الناس ما بعث الإله رسولا
لو كان لفظك فيهم ما أنزل الـ ـقرآن والتوراة والإنجيلا

قال صاحب التبيان في البيت الأول: «وقد أخطأ أبو الطيب في هذا الإفراط وتجاوز الحد» وفي البيت الثاني: «وهذه مبالغة تُدْخل النار، نعوذ بالله من الإفراط، وهذا الغلو»[3].

---

(١) يقصد قوله في البيت الذي يلي البيت السابق:

نور تظاهر فيك لاهوتيه فتكاد تعلم علم ما لن يعلما

(٢) ابن وكيع التنيسي: المنصف في الدلالة على سرقات المتنبي جـ١/١٢٨.

(٣) العكبري: التبيان ٣/٢٤٤.

إن مذهب المتنبي في المدح، النازع إلى المبالغة، الحريص على ابتكار المعاني، أغرى شاعريته في احتطاب بعض المعاني المنكرة، لتحررها من حدود الإلف والقرب، وانطلاقها مع التأول والاحتمال والتعدد، ولذلك فإن شيخ الإسلام ابن تيمية كان ينكر على المتنبي في مبالغته ويقول: في شعره شيء لا يصلح أن يكون إلا لجناب الله تعالى: قال الشيخ تقي الدين ابن تيمية المذكور: وربما قلت هذين البيتين في السجود أدعو الله بما تضمناه من الذل والخضوع:

يا من ألوذ به فيما أؤمّله ... ومَنْ أعوذُ به مما أُحاذِرُهُ
لا يَجْبُرُ النَّاسُ عَظْماً أنت كاسِرُهُ ... ولا يَهيضونَ عظماً أنت جابِرُهُ[1]

قد يقال إن المتنبي في هذا الطور من حياته (الصبا) لم يجد بداً من المغالاة بأن يفيض على ممدوحيه المخلوقين صفات الخالق وألوهيته، إذ كان واقعاً تحت تأثير أبي الفضل والمبادىء التي لقّنها له وضلّله بها، فضلاً عن انتشار مبادىء القرمطية والباطنية وآراء الصوفية في الحلول، فسهل عليه ذلك هذا التجاوز في مدحه. ولعله لذلك لم يلتفت إلى أنها خروج على الدين، أو لم ينتبه إلى مساسها بالعقيدة.

لكننا نقول إن غفلة المرء وتبعيته للمذاهب الفاسدة اعتقاداً غير معف له من مسؤوليته في هذا التجاوز، الذي لا يتعلق بخطأ في التفكير وبناء المعنى، فيلتمس العذر له في تقدير الخطأ والصواب، لكنه إثم وخطيئة متعلقة بالدين والعقيدة.

وللمتنبي عدوان على الأنبياء لا بمماثلته لمقامهم، أو بتوحيده بين إحساسه بالغربة وإحساسهم حين فخر بنفسه متجاوزاً الحدود الإنسانية في قوله:

ما مقامي بأرض نخلة إلا ... كمقام المسيح بين اليهود

وقوله:

أنا في أمة تداركها الله ... غريبٌ كصالح في ثمودِ

(١) ابن كثير: البداية والنهاية م٦ ج١١ ص٢٧٥ ط بيروت دار الكتب العلمية ١٤٠٧.

وإنما عدوانه في شكوكه في معجزات بعض الأنبياء وصدقها أو سدادها، من ذلك قوله:

لو كان ذو القرنين أعملَ رأيَهُ لما أتى الظُّلماتِ صرن شُمُوسا
أو كانَ صادف رأسَ عازَرَ سيفُهُ في يومِ معركةٍ لأعيا عيسى

قال العكبري متعوذاً من رواية هذا الشعر وتفسيره: «هذا الذي أحياه الله لعيسى ابن مريم لو كان قتل بسيفه في الحرب لعجز عيسى عن إحيائه، وهذا من الإفراط الذي لا يحتاج إليه، نعوذ بالله منه»[1].

وفي بعض فخر المتنبي خروج إلى حد الكفر كقوله في صباه ارتجالاً:

أي محلٍّ أرتقي؟ أي عظيم أتقي؟
وكُلُّ ما قد خَلَقَ اللـ ـه وما لم يخُلقِ
مُحْتَقَرٌ في هِمَّتي كِشَعْرَةٍ في مَفْرِقي

قال الواحدي: «ليس معناه ما لا يجوز أن يكون مخلوقاً كذات البارىء وصفاته؛ لأنه لو أراد هذا للزمه الكفر بهذا القول، وإنما أراد ما لم يخلقه، مما سيخلقه[2]. وإن كان قد لزمه الكفر باحتقاره لخلق الله، وفيهم الأنبياء والمرسلون، والملائكة المقربون»[3].

وعلّق ابن وكيع التنيسي على هذه الأبيات بقوله: «هذه أبيات فيها قلة ورع، احتقر ما خلق الله عز وجل، وقد خلق الأنبياء والملائكة والصالحين، وخلق الجن والملوك والجبارين، وهذا يجاوز في العجب الغاية ويزيد على النهاية، وقد تهاون فيما خلق الله عز وجل الذي جميعه عنده كشعرة في مفرقه.

---

(١) العكبري: التبيان ج٢/١٩٩.

(٢) الواحدي: شرح ديوان أبي الطيب المتنبي ج١/٦٠

(٣) العكبري: التبيان ٢/٣٤١.

وهذا مما لا أحب إثباته في ديوانه، لخروجه عن وجه الكبر إلى حدّ الكفر»[1] وسواءٌ أكان المتنبي مبالغاً مفرطاً في ثنائه، أو مستخدماً ألفاظاً مستكرهة في مدح البشر، فإن معانيه في هذا المجال منكرة تدل على قلة ورع، ورقة دين، وهو بذلك يشاكل أبا نواس في إضفاء صفة الخالق على المخلوقين، غير أن في شعر أبي نواس السابق الرواية دليلاً على اعتقاد فاسد كان يعتقده، أو يسوغ به مجونه ولهوه، وهو أن الدنيا نهاية المطاف، وأن الموت لا حياة بعده، فهو بيضة العقر أو بيضة الديك، وإلى أي نسبت معانيه، تبدى لك عبثه واستهتاره بركن أساسي من أركان الإيمان.

ويظل بعد ذلك موقف الرواة من كل ذلك محسناً في إيجابيته بالرفض تارة، والإضراب عن تفسير المعاني تارة أخرى، أو بالإنكار مرة، والتعوذ مرة ثانية.

* * *

ويأتي شعر أبي العلاء المعري في صباه وهو مما حواه ديوانه سقط الزند[2] رديفاً لشعر المتنبي في الغلو في المدح بخلع صفات الله عز وجل على الممدوحين والإنحراف العقدي في فلسفة الموت والحياة، وكان الرواة لهذا الشعر على وعي تام بالتنصل من تبعة روايته، نصاً على مواضع فساده، إو إضراباً عن تفسيره، على الرغم من اعتذار المعري عن ذلك في خطبة ضوء السقط.

يقول أبو العلاء المعري مادحاً:

والشخوص التي خلقن ضياءً ... قبل خلق المرِّيح والميزان
قبل أن تُخْلَقَ السموات أو تؤ ... مر أفلاكهن بالدوران

قال ابن السيد: «تحت هذا الكلام معنى نكره التصريح به أو الإفصاح عنه، وقد

---

(١) ابن وكيع التنيسي: المنصف في الدلالة على سرقات المتنبي جـ١/٢٠٣.

(٢) كثير من شعر سقط الزند قاله أبو العلاء في مرحلة مبكرة من عمره لم يجاوز فيها الخامسة عشرة خاصة حين رثى والده. (انظر الفصول والغايات، مقدمة التحقيق ص٧).

غلا في مدح هذا الشيعي غلواً تجاوز فيه الحدود، وذكر من حماقات الشيعة واعتقاداتهم الفاسدة ما كان يجب أن يُضرب عنه، ولا يدنس شعره بشيء منه»[1].

وفي قوله يمدح:

ولولا قولك الخلاق ربي لكان لنا بطلعتك افتتانُ

قال ابن السيد: «هذا غلو شديد نعوذ بالله منه»[2].

أما قول المعري في مدح الشريف الطاهر الموسوي وتعزية ابنه الرضي والمرتضي:

تكبيرتان حيال قبرك للفتى محسوبتان بعمرة وطواف

فقد أضرب ابن السيد عن تفسيره إنكاراً وورعاً وإحساناً[3].

ولم يعف أبو العلاء من تبعة القبح وفساد التوجه والرأي حين أخذ برواية بعض المفسرين لقصة سليمان عليه السلام وابنه، وذلك في قوله يرثي فقيهاً حنفياً يكنى أبا حمزة:

وهو من سخرت له الإنس والجن بما صح من شهادة صاد
خاف غدر الأنام فاستودع الرِّيـ ـح سليلاً تغذوه دَرَّ المهاد
وتوخى له النجاة وقد أيـ ـقن أن الحمام بالمرصاد
فرمته به على جانب الكـ ـرسي أمُّ اللهيم أخت النَّادِ

قال ابن السيد: «هذا الشعر مبني على رواية منكرة جاءت عن بعض المفسرين في تفسير قوله عز وجل ﴿ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب﴾ فذكر

(١) ابن السيد البطليوسي: شروح سقط الزند جـ١/٤٤٨.
(٢) المصدر نفسه جـ١/١٩٩.
(٣) المصدر نفسه جـ٣/١١٩٦.

هذا المفسر أن سليمان صلى الله عليه وسلم كان يؤثر أن يكون له ولد، فلم يرزق إلا ولداً واحداً، فخشي عليه الآفات ولم يثق بأحد من الناس أن يسلمه إليه، فدفعه إلى الريح لتغذوه وتُرَبِّيه فوجده على كرسيه ميتاً، ولم ينتفع بحذره عليه»[1].

ونظر المعري إلى الموت والفناء نظرة فلسفية قائمة على الشك والتردد كما في قوله:

الـروح تنـأى ولا يُدرى بمـوضعها ... وفي التـرب لعمري يرفث الجسدُ
والعيش كالمـاء يغشـاه حوائمنـا ... فصـادرون وقـومهم إثـرهم وردوا
ومـدُّ وقتي مثـل القِصـر غايتـه ... وفي الهـلاك تسـاوى الـدر والبرد

قال ابن بسام بعد روايته للأبيات في ذخيرته دالاً على انحرافها العقدي: «وهذا الكلام في غاية الاضمحلال والفساد، فليس تساوي الناس في الموت والفناء حجة في عدم البقاء والمراتب في دار الجزاء»[2].

وشايع بعض الشعراء الأندلسيين أبا العلاء المعري في هذه النظرات الفلسفية للموت والفناء مثل عبد الجليل بن وهبون والسمسير، فكان نقد ابن بسام لهم شديداً عنيفاً، فحين قال السمسير:

من كان مخلوقـاً من الأرض إذ ... رُكِّـب لم يطلع الـسـرَّ
حتـى ترى الـجـثـة مطروحـة ... والـنـفس في عالمهـا تسـري
. . . لقـد نشبنا في الحياة التي ... توردنـا في ظلمـة الـقـبـر
يا ليتـنـا لم نك من آدمٍ ... أورطـنـا في شبـه الأسـر
إن كان أخـرجـه ذنـبـه ... فمـا لنـا نُشـرك في الأمـر

(١) المصدر نفسه جـ٣/ ٩٩٢-٩٩٣.

(٢) ابن بسام الشنتريني: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ق١م٢ ص٨٨٩.

قال ابن بسام: «والسمسير في هذا الكلام ممن أخذ الغلو بالتقليد، ونادى الحكمة من مكان بعيد، وصرح عن عمى بصيرته، ونشر مطوي سريرته في غير معنى بديع، ولا لفظ مطبوع، ولعله أراد أن يتبع أبا العلاء فيما كان ينظمه من سخيف الآراء...»[1].

وحمل التكسب بالشعر في الأندلس بعض الشعراء إلى الارتكاس في الضلال والانحراف عن جادة الحق في المدح، شأنهم في ذلك شأن شعراء المشرق، فهذا أحمد بن عبد العزيز بن خيرة القرطبي (المنفتل) يمدح ابن النغريلي الإسرائيلي، فيفضله على الأنبياء والمرسلين، ويعلن ارتداده عن الإسلام باتخاذ اليهودية ديناً، ولذلك تبرأ ابن بسام منها في التقديم لها بقوله: «وله في هذه القصيدة من الغلو في القول ما نبرأ منه إلى ذي القوة والحول وهو قوله:

ومن يك موسى منهم ثم صنوه ... فقل فيهمُ ما شئت لن تبلغ العشرا
فكم لهم في الأرض من آية ترى ... وكم لهم في الناس من نعمة تترى
أجامع شمل المجد وهو مشتت ... ومطلق شخص الجود وهو من الأسرى
فضلت كرام الناس شرقاً ومغرباً ... كما فضل العقيان بالخطر القِطرى
ولو فرقوا بين الضلالة والهدى ... لما قبلوا إلا أنامك العشرا
ولا استلموا كفيك بالركن زلفة ... فيمناك لليمنى ويسراك لليسرى
وقد فزت بالدنيا ونلت بك المنى ... وأطمع أن ألقى بك الفوز في الأخرى
أدين بدين السبت جهراً لديكم ... وإن كنت في قومي أدين به سرّا
وقد كان موسى خائفاً مترقباً ... فقيراً وأمنت المخافة والفقرا

وأبان ابن بسام عن موقفه من هذا القبح الفاسد بقوله: «فقبح الله هذا مكسباً، وأبعد من مذهبه مذهباً، تعلق به سبباً، فما أدري من أي شؤون هذا المدل بذنبه، المجترىء على ربه أعجب، ألتفضيل هذا اليهودي المأفون على الأنبياء والمرسلين،

(١) المصدر نفسه: ق١ م٢ ص ٨٩٠.

أم خلعه إليه الدنيا والدين؟ حشره الله تحت لوائه، ولا أدخله الجنة إلا بفضل اعتنائه»[1].

والتسوية بين الممدوحين والصحابة تسوية باطلة، إذ لا يصل المتأخر إلى منزلة هؤلاء الذين زكاهم الله عز وجل بقوله: ﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار. . . الآية﴾ والخيرية مطلقة لهم «خير القرون قرني ثم الذين يلونهم» فكيف يستقيم في الفهم تسوية المنازل وتوحيد المراتب وإن كان الأمر على المشابهة؟

وكان أبو الوليد حسان بن المصيصي الشاعر الأندلسي ممن «أولع بهذا المعنى فأعاده وأبداه، وألحمه وأسداه، وأعجبه ما اتفق له منه، حتى أخرجه إلى ما كان في مندوحة عنه. . . فقال من قصيدة يمدح بها المعتمد بن عباد، وذكر نفسه وذكر ابن عمار:

كأن أبا بكر أبو بكر الرضي وحسان حسان وأنت محمد

فأراد أن يعرب فأعجم، وأحب أن يضيء فأظلم، ونعوذ بالله من الخطل في القول، ونبرأ إليه من القوة والحول»[2].

---

(١) ابن بسام: الذخيرة ق١ م٢ ص٧٦٥.

(٢) ابن بسام: الذخيرة ق٢ م١ ص٤٤١.